EL - HAKIKA (the Truth) Journal for Social and Human Sciences
Volume 17, Issue 04, December 2018 ISSN: 1112-4210
(Issue 47 of the previous sequence) EISSN: 2588-2139
مجلة الحقيقة
مجلد 17 عدد 04 - ديسمبر 2018
(العدد 47 من التسلسل السابق)

التّلقي وخصوصية المشهد الاحتفالي بالمولد النّبوي عند الزيانيين

The Reception and specificity of the celebration of the Prophet's birth at the Zayani

د. جميلة معتوق، قسم اللغة والأدب العربي– جامعة أدرار، maatdja@yahoo.com

- **Received date: 15/07/201**8
- **Accepted date: 31/10/2018**
- **Publication date:** 20/12/**2018**

الملخص

ما يستوقف الباحث في مشهد الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف في الجزائر عند الزيانيين، خصوصية الاستعداد له من طرف السلطان أبي حمو موسى الزّياني، وكيف عُرف بأسلوبه الخاص في ذلك عن بقية السلاطين المجاورة، وكيف أنه بهذا قد صنع عالما مناسبا للظاهرة الأدبية، وأنه قد فتح بابا للقراءة النّقدية وإجراءاتها التي تبحث في أحوال المُتلقي والسّياق الذي يجمع بينه وبين المُلقي، وإنّ الدراسة لتبحث في مظاهر هاته الخصوصية التي أسهمت في تشكيل عناصر العملية التواصلية أثناء إلقاء المولدية النبوية، وتجسيد ما تبحث عنه مبادئ نظرية التلقي والاستجابة الجمالية.

الكلمات المفتاحية: خصوصية الاحتفال بالمولد– التّلقي– المُلقي– المُتلقي– السّياق.

Abstract:

The scene of the celebration of the birth of our prophet in Algeria at the Ziyanis, often stops the researcher to study that special readiness for the occasion by the sultan Abu Hamo Musa Ziyani and to examine the style that he had created which was different from that of the neighbouring Sultans; and how he had thus formed a nt and the context that combines with the author. and the study to look at the manifestations of this property which contributed to the formation of

elements of communication process during the delivery of the poetry of the prise of Prophet Muhammad(PBUH)in addition to the receiving theory and the literary response.

Key words: Birth Celebration -The Reception-The Lecturer- Receiver -Contexte.

مقدمة:

حين نقل السّلطان أبو حمو موسى الزياني(791هـ) الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف إلى بلاده من المغرب، أراد لها صبغة خاصة وصدى يغنيه عن سبل كثيرة في إصلاح أحوال المجتمع، وقد عبّر الدكتور عبد الله حمادي عن حفاوة الزيانيين لمثل هذا اليوم بقوله:«نرجح أن لهذه المملكة خصوصيات معتبرة من حيث الاعتناء بمولده ﷺ»[1]؛ حيث أضفى ما يليق بمقام النّبوة، وبما يفترض أن يقدم الملوك لمثل هاته المناسبة.

ولذلك سنبحث عن هاته الخصوصية في محيط وظروف عملية الاستجابة ومواطن تمظهرها، نبرز العناصر الإبداعية التي من شأنها خلق التوازن بين المبدع والمتلقي أثناء إلقاء المولديات النبوية، ونركز على تلك المحفزات التي كانت تجذب الجمهور المتلقي.

وسننطلق طبعا من إشكالات للكشف عن مظاهر هاته الخصوصية التي كانت من جهة مسؤولة عن راحة الجمهور واستمتاعه بتلك الأجواء الليلية إلى بزوغ الفجر طيلة ليالي الشهر، وعن تجسيد كل عناصر عملية التلقي التي

[1]– د.عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، (ط)1، دار البعث للنشر والتوزيع، 1406هـ–1986م، ص249.

تهتم «بتذوق المشاهد أو القارئ أو السّامع للأعمال الأدبية أو الفنية»1، وبمحفزات الاستجابة التي أوجدتها الظروف الاحتفالية.

فسلوك المتلقي يدفعنا إلى السؤال عن طبيعة هذا التّلقي، وعن المظاهر المحفّزة لتأثره محققة سمات التلقي؟ وكذلك البحث عن صاحب العملية الإبداعية الأول وهو المبدع ناظم المولدية النبوية، ومدى ضرورة حضوره لتبليغ مقاصد مولديته للمتلقي؟ وعن السلطان أبي حمو موسى الزياني الذي يعتبر بالإضافة إلى أنه مُلْقٍ، هو مُتَلَقٍ في الوقت نفسه، وما أحواله ووضعه بين الصفتين؟

أمّا عن المولديات النّبوية، فنبحث عن الميزات التي انفردت بها عن المديح النبوي من خلال عناصر بنائها وخاصية إلقائها، وما يحمل ذلك من مثيرات أسلوبية وأدائية لاستمالة الجمهور، وما مدى نجاح مساهمة السلطان في إبراز السّياق المشترك بين الملقي (الشاعر) والمتلقي(الجمهور)؟ والظروف الزمانية والمكانية التي تجمعهما محققة توازنا نفسيا واجتماعيا بينهما؟

سنقف عند كلّ هاته الإشكالات من خلال تلك الخصوصية التي انمازت بها احتفالات الزيانيين بالمولد النبوي الشّريف، والتي من شأنها العمل على بروز مظاهر خاصية التلقي بمنهج وصفي تحليلي يحضر فيها المنهج التاريخي ولاجتماعي، وذلك انطلاقا من العناصر التالية:

أولا: خصوصية الحضور(شعبية المشهد).

ثانيا: خصوصية المولديات النبوية بين بنائها وإلقائها.

ثالثا: خصوصية المقام.

1- د. محمد عنابي، المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العلمية للنشر- لونجمان، ط(2)، 2003، ص 88.

عرض:

إنّ خصوصية المشهد الاحتفالي بالمولد النبوي الشريف عند الزيانيين لم يشهد لها مثيل في الممالك المجاورة لها؛ فقد «أضفى ملوك بني زيان على هذا الحدث العظيم هالة من الإكبار والإجلال إلى درجة المبالغة»[1]، في جوّ احتفالي ديني شكّل مشهدا Spectacle–Scene اجتمع فيه كلٌّ من المُلقي والمُتلقي مثله مثل المشهد المسرحي على اعتبار أنه « مل ما يُعرض ليسترعي النظر وخاصة إذا كان مثيرا غير عادي»[2]، وهذا ما تميّز به مشهد الاحتفال بالمولديات النبوية في جوّ روحاني إبداعي، ويُعرف في الأدب على أنه «عرض ضخم»[3]، ولكن مشهد الاحتفال بالمولد النبوي ينفرد في هذا العرض بتلك الابتهالات الإنشادية في حضرة المصطفىﷺ أمام السّلطان القائم على كلّ مظاهر الاحتفال والاهتمام بها.

وهذا ما أثبتته كلّ المصادر التّاريخية التي تحدثت عن الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف عند المسلمين والزيانيين بالأخص؛ فقد كان لها طابعها الخاص في استقطاب الحضور من خلال هاته الصبغة الإبداعية في نظم المولديات النّبوية وإلقائها أثناء المشهد الاحتفالي، وهذا ما يفتح باب الاجتهاد النقدي في البحث عن السّمات الفنية لهذا النّوع من الشعر وعن خاصية الأداء الإلقائي لخلق جوّ آخر يُعنى بظاهرة التّلقي من خلال هاته الخصوصية المتمثلة في:

1- د.عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، ص 249.

2- إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، تونس، (د،ط)، 1986، ص 330.

3- المصدر نفسه، 330.

أولا: خصوصية الحضور (شعبية المشهد)

لم يقتصر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في الدولة الزيانية على أهل البلاد وحدهم، بل من كلّ الأنحاء كانت تأتي الوفود ما أضفى على احتفالاتهم الطابع الشعبي، وهاته خاصية لم تعرف عند بلاطات الدول المجاورة؛ «فقد كان لليلة المولد خصوصيتها وسط المواسم المختلفة لدى السلطان، وأهم خاصية فيها هي شعبيتها»[1]؛ فكان الحضور غفيرا، وهذا طبعا لتعميم الهدف الإصلاحي من وراء الاحتفال من أجل القضاء على البدع التي شوهت ثقافتهم، ولذلك كان الحرص على حضور عامة النّاس ليكون التغيير أوسع وأشمل.

ولعله من الأهداف التي سعى إليها السلطان للتغيير وهو المكسب الشعبي «وإن هذا الجو الذي اصطنعه السلاطين الزيانيين لهذا الحدث الهام يدل على أنهم أدركوا دوره الفاعل في حياتهم السياسية الثقافية وخبروا آثاره البعيدة على مستقبل البلاد، فلم يتوانوا في ضرب المواعيد له كل عام»[2]، فتحقق هذا المشهد أمام حضرة السلطان ليدل على نيّة إصلاح جميع فئات المجتمع وطبقاته.

فهذا الجو يعبّر عن بثّ روح الوحدة في مجابهة ومقاومة المخاطر التي تتربص بالأمة الإسلامية كما أنها تزرع في الناس روح الجماعة والتضامن مع بعضهم البعض حال الخطوب، وتعبّر عن فضيلة التواضع بين كبار الدولة وارتياح العامة وشعورهم بالطمأنينة اتجاه حكّامهم وروح التكافل فيما بينهم،

1- أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، موفم للنشر والتوزيع، (د،ط)، 2008، ص78.

2- المرجع نفسه، ص82.

ISSN: 1112-4210
EISSN: 2588-2139

لذلك لم تقتصر هاته الخصوصية على فئة دون أخرى، ولم يكن تركيزها على «خاصية الناس بل كان للعامة حضور واسع وجلي وبدرجة أخصّ»[1]، وهذا يجعل الجمع غفيرا يزداد من خلاله الحسّ الديني للجماعة في مثل هاته المناسبات العظيمة.

هذا الارتياح الذي ينشده السّلطان من خلال التحضير المسبق والمحكم لتجسيد مظاهر الاحتفال التي تعمل على تهيئة المكان والاهتمام بتنسيقه وتزينه بالأفرشة الملونة والأطعمة المنوعة، لجلب الحضور والبحث على توفير راحتهم وبقائهم طيلة الاحتفال، ولذلك كان السلطان وكل أفراد الدولة الزيانية يتأهبون لهذا الموسم، فلم يكن يقتصر عليه وحده فقط إنما على الكل وبمشورته وإشرافه سواء أ كان ذلك بمساعدة أهل البلاد أم كان بمساهمة المثقفين من الشعراء والعلماء والفقهاء وغيرهم، والكلّ يعمل على نجاح هذا الحدث حتى إذا ما جاءت أيّامه ولياليه سارع الكل وبطريقته الخاصة في الاحتفاء بمولده ﷺ.

وحين نرجع إلى المصادر ونتفقد ما يدل على ما من شأنه أن يدل على عملية التلقي والاستجابة الجمالية (الجمهور– الحضور– المستمع)، فثمة ما يدل على الاهتمام به في هاته المناسبة العظيمة؛ فأبو زكريا يحيى بن خلدون دليل على ما كان للسلطان من صنيع في إقامته لليلة الميلاد النبوي «مدعى كريما وعرسا حافلة احتشدت لها الأمم وحشر بها الأشراف والسوقة»[2]، ونقف عند كلمة مدعاة التي تحتشد لها كل الأمم من الناس الأشراف منهم والسّوقة ليتضح الكم الهائل من الحضور الغفير ولتتبين صورة الجمهور الذي سنتعامل

[1]– المرجع نفسه، ص78.

[2]– أبو زكرياء يحيى بن خلدون، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات، (د،ط)،(د،ت)، 2007، ص100.

معه في عملية التلقي التي تتراءى ملامحها فور بدايات الإلقاء للمولديات النبوية.

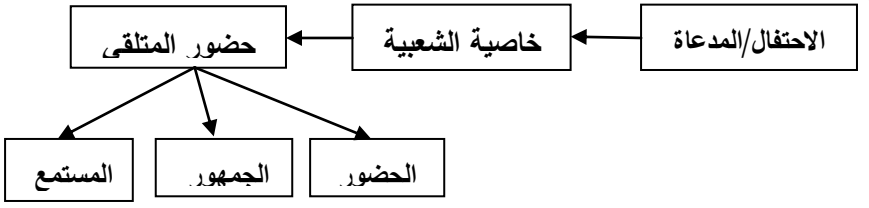

فإذا كان لا بدّ من حتمية إقامة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فإنّ أهمية حضور الجمهور حتمية أخرى تقرها العملية الإبداعية التي يختص بها المبدع حين يقرر أن يخاطب الجمهور ويقيم معه «جسر التلاقي أثناء العملية الإبداعية ويصاحبه في أطوار الخلق الإبداعي»[1] وأثناء الأداء الإلقائي، فتبرز حينها معالم ظاهرة التلقي هناك في ذاك الجو الاحتفالي.

وبما أن المديح النبوي حاضر في إلقاء الشعراء للمولديات، فإنها لا تعمّ الفائدة الدينية فقط، بل وللعملية الإبداعية حضور في كل دقائق وتفاصيل مظاهر الاحتفال، لتتحقق ظاهرة الاستجابة الجماعية للعملية الإبداعية المتمثلة في عنصر الإلقاء بين المُلقي(الشّاعر) والمتلقي(الجمهور).

والجمهور في هذا المحفل ليعطينا فكرة عامة عن عملية التلقي وكيفية التلقي وطبيعة الإلقاء وميزة النّص المُلقى، ويعطينا تصورا عن الشاعر، وهو يلقي مولديته وكيف يستحضر ما من شأنه أن يُنشئ الأداء وكل خصائص الصوت وتفعيل الحركات لتجسيم المعنى حتى يتسنى للجمهور استقبال ذاك بسمعه وإصغائه لما يلقى، وهذا ما يخبرنا عن طبيعة الجمهور وكيفية تلقيه التي تدل على السّماع والتأثر بالمحتوى والتفاعل معه، فلا نجده بصفة القارئ لنص مكتوب إنما هو متلق لنص شفاهي.

[1]– د.حبيب مونسي، نظريات القراءة في النقد المعاصر، منشورات دار الأديب، (د،ط)، 2007، ص 39.

ومن خلال مشهد إلقاء المولديات في حضور الجمهور، يظهر تعدد صور المتلقي أثناء هاته العملية الإبداعية في صورتين؛ أولهما تتمثل في صورة المتلقي العادي وهو عامة الناس من الجمهور الذي يحضر حضورا حيّا متأثرا بالأداء الفعلي للإلقاء مستفيدا بما للمولديات من جوانب دينية يحتاجها النّاس في حياتهم، ولذلك كان على الشاعر أن يعمل كل الوسائل التي تعمل على إشراك هذا الجمهور كعنصر أساسي وضروري ضمن العملية الإبداعية لا تكتمل إجراءاتها إلا بحضوره.

أما النوع الثاني من صور الجمهور فيتمثل في الطبقة المثقفة التي تخصّ الشعراء المشاركين في عملية الإلقاء وغير المشاركين وهم من لديهم خبرة وفكرة على ما هي الخصائص التي تميّز المولديات النبوية تحت مسمى الجمهور الخبير (القارئ الخبير)، وفي هذا النوع يظهر نوعين من المتلقين بالتناوب، الأول متمثل في الشعراء حين يكون السلطان الملقي والثاني في السلطان لمّا يلقي الشعراء، وكلاهما يصبح متلقي ضمن المتلقين المتمرسين العارفين بأحوال المولديات الفنية.

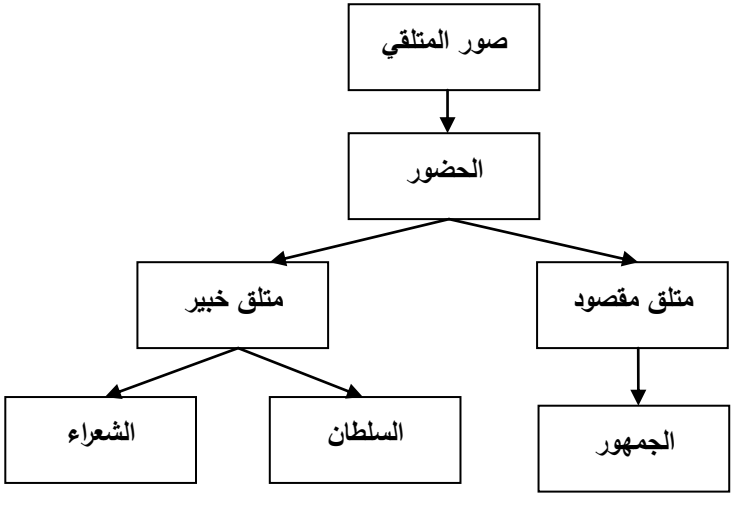

ففي حضور السلطان للحفل ما يجعلنا نقرّ أنه من الحضور المتلقين الذين يشاركون أطراف العملية الإبداعية الإلقائية حين ينهي الإلقاء، ويكون ضمن الحضور؛ لأن ما تبقى من المولديات ترفع إلى مقامه العلي، وبهذا أمام متلق في صورة تختلف عن صورة المتلقي الجمهور؛ لأنه قارئ خبير متمرس عالم بما تتماز به المولديات النبوية من سمات فنية في البناء المضموني والشكلي.

وما يبدو واضحا أن خاصية التلقي في هذا المشهد الاحتفالي مقترنة بوجود الجمهور أثناء عملية الإلقاء، بمعنى أن هذا الحشد من الناس يشكل فضاء للتلقي الجماعي، ولذلك من المنظور اللغوي لكلمة "الجمهور"؛ أنّ «جمهور النّاس جلّهم»[1]، وعليه فإنه إذا أردت أن تجمع القوم فإنك تُجمهرهم؛ لأن جمهور الناس «أكثرهم، وعدد مجمهر: مكثّر، والجمهرة: المجتمع»[2]، ما يدل على أنها كلمة تشمل النّاس دون تمييز ويتجمهرون داخل مكان يجمعهم لمشاهدة أمر معين.

ولذلك تجدهم وعن وعي منهم وإدراك يشتركون في المصالح «ويتولد لديهم شعور بالوحدة وتحقيق الذات»[3]، واجتماعهم هذا لا يدل إلا على وحدة شعورهم في أمر معين، ومثله ما حدث في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف فإنهم قد اجتمعوا على حدث تمظهرت ملامحه في المولديات النبوية، وهي

[1]– ابن منظور، لسان العرب، ج(2)، مادة (جمهر)، المكتبة التوفيقية للطباعة، (د، ط)، (د،ت)، ص435.

[2]– المصدر نفسه، ص 436.

[3]– أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1982، 338.

تشيد بمدح الرسولﷺ وبمولده الشريف لأن له قداسة دينية هم في أمسّ الحاجة إليها في حياتهم، واجتمعوا على التأسي بها والتفرغ لها.

فما كان يحدث في المشهد الاحتفالي النبوي عند الزيانيين يشبه وضع الجمهور أثناء العرض المسرحي؛ فحين مشاهدته لمظاهر الاحتفال زمن إحياء ليلة المولد بحفاوة المكان وتجهيزه مستمتعا بإلقاء المولديات بشكل يستعرض فيها الشاعر كل طاقاته الفنية والأدائية ليؤثر في النفوس، وهذا ما يعتبر مثل العرض الذي يرجى من ورائه تطهير النفس، فتنتابه مشاعر دينية تولد لديهم من خلال هذا الحدث الاحتفالي تحقيق ذواتهم التي يبحثون لها عن الاستقرار الروحي فتنسجم عواطفهم مع ما تدعو له المولديات الدينية.

ثانيا: خصوصية المولديات النبوية بين بنائها وإلقائها

أ. خصائص النّص الشّعري:

إن استجلاء السّمات التي ينماز بها النص الشعري خطوة لابدّ منها في الدراسة كونها المنطلق الذي يجب أن ننطلق منه للكشف عن جمالية التلقي أثناء إلقاء المولديات النبوية على الجمهور الحاضر والذي يعتبر كما رأينا العنصر المهم لهاته العملية الإبداعية، وهذا في المشهد الاحتفالي بالمولد النبوي الشريف، وذلك من خلال المحفزات المساعدة على تمشكل مثل هاته الجمالية.

وكان الإبداع الشعري أهم ما اهتم به السّلطان الشاعر، وعلى إثر ذلك ظهر نوع جديد منبثق من المديح النبوي تحت مسمى المولديات النبوية؛ وهي «المنظومة في مدح رسول الله والإشادة بميلاده وذكر معجزاته ثم التّخلص إلى

مدح السلطان وذكر خلاله وإطراء تحفّيه بهذه الدّعوى»1، ورغم حضورها في إمارات مختلفة ومتنوعة، إلا أنّها اكتست طابعا إبداعيا خاصا عند الزيانيين نظرا لخصوصية مقام الاحتفال التي تميزوا بها، وما عرف عن شاعرية سلطانها أبي حمو موسى الزّياني.

فقد كان لها حظها الأوفر في العملية الإبداعية التي تدور في فلك (المرسل والمستقبل)، وقد تفننوا في نظمها بحلّة فنية وعلى الصورة الجمالية التي أخرجوها عليها، وما يميزها على النص المدحي النبوي خصائص بنائها على مستوى الشكل والمضمون، فضلا على إلقائها وقد انفردت بذلك؛ فكان الشاعر أثناء إلقائه يفتتح بالمقدمة الطللية أوالمقدمة الغزلية ثم يعبر عن أشواقه نحو الأراضي المقدسة، وهو يمدح سيد المرسلين المصطفى عليه الصلاة والسّلام ثم يختم بمدح السلطان أبي حمو موسى الزياني ويشيد بصنيعه واهتمامه بالاحتفال، ولا نجد هذا في مولدياته النبوية إنما يكتفي بمدح.

كما لها خاصية أخرى برزت في مشاهد الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وارتبطت بها، وهي خاصية الإلقاء، فلا يمكن للشاعر أن ينظم المولديات النبوية دون أن تُلقى في الاحتفال مباشرة من دون حواجز زمنية، ولذلك تعتبر هاته الميزة محفزا لبروز ظاهرة التلقي الحيّ والمُعلن، وهذا ما يجعلنا نتعامل مع النص بصفته ملقى ومسموع له علاقته بالنّص الشفاهي، ولذلك كانت مهمة الشاعر كبيرة بالإضافة إلى الاستعداد والتحضير، فإنه لا بد له من إعمال كل ما له علاقة بالحركات غير اللغوية من حركات وإيماءات وإشارات، وما نريد الإشارة إليه أن المولديات ورغم أنها مكتوبة ولكننا سنتعامل معها على أنّها

[1]– لسان الدين الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، ج(3)، تق، تح:د. السعدية فاعية، (د،ت)، (د،ط)، ص279.

نص شفاهي، كونها ألقيت شفاهة والتقى بها المتلقي سماعا لا قراءة على اعتبار الإرسال الأول، وقد جاء شفاهة، باستحضار السّماع من طرف الجمهور.

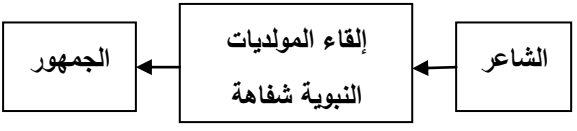

خاصية الشفاهة في المولديات النبوية

والشاعر باستعداده هذا وتحضيره يجعلنا نستحضر مصطلح القارئ الضمني الذي نادى به نقاد نظرية التلقي؛ فالشاعر يضع في حسبانه أن هناك قارئا سيلتقي بتجربته الإبداعية يتمثل في الجمهور الحضور وفي قارئ آخر هو عالم بمواطن جمال النّص الشعري وهو السّلطان الذي يعتبر شاعرا يشترك معهم في التجربة الشعرية والإلقائية، لأنه من الشعراء الذين يلقون مولدياتهم النبوية.

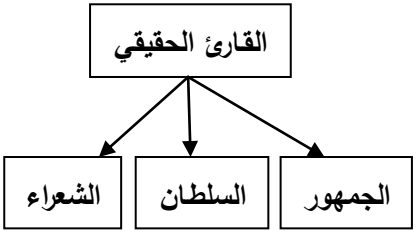

ب. خصوصية الملقي وطريقة الإلقاء

حين يخبرنا ابن خلدون عن شاعر المولديات وهو يلقي مولديته النبوية أثناء الاحتفال بالمولد النبوي في قوله «والمسمع قائم صدر عترته على بعد من الخليفة مقدر يردد نغمات الألحان ويرتب رنات الإيقاع وينشد خلال ذلك أمداح

سيد الرسل وخاتم النبيين محمد بن عبد الله »[1]، تتبين خاصية الشفاهة التي هي مرتبطة بالإلقاء وذلك عند وصفه لشاعر المولدية بأنه (المُسمِع)، وهو يلقي مولديته النبوية مهيّئا نفسه لذلك.

أمّا عن طريقة الإلقاء فإنّ هناك استرتيجية لخطة محكمة تدبّر في أمرها الشاعر السلطان وشعراء المملكة، وحتى الجمهور إذا ما كانت الظاهرة مرتبطة بمسألة الاستجابة الجمالية؛ فقد نقلت لنا المصادر التاريخية أن من خطة استراتيجياتهم، ذلك التقليد والأسلوب الذي سار عليه السلطان في إلقاء المولديات النبوية «فما من ليلة مولد مرت في أيّامه إلا ونظم فيها قصيدا في مدح المصطفى ما يبتدئ المسمِع في ذلك المحفل العظيم بإنشاده...»[2]؛ فالخطة إذن تقتضي افتتاح الشاعر السلطان الإبداع الشعري وهو ما سمي بالنص الافتتاحي.

وما تقتضيه كذلك تلك الخطة أن ما يتلو النص الافتتاحي نصوص لشعراء المولديات في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف «ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه العلي في تلك اللّيلة نظما»[3]، وبرز في ذلك أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري(أواخر 8هـ)وزكريا يحيي ابن خلدون(778هـ) والتلالسي(767هـ)، «فعلى هذا الأسلوب تمضي ليلة مولد المصطفى في جميع أيام دولته...»[4]، وكلهم يشتركون في الخصائص ذاتها بالنسبة لبناء المولديات النبوية إلا مع أبي حمو موسى الزياني الذي يكتفي في مولديته بمدح المصطفىﷺ.

---

[1]– أبو زكريا يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج(2)، ص 104.

[2]– التنسي محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ ملوك بني زيان ملوك تلمسان، ص164.

[3]– المصدر نفسه، ص164.

[4]– المصدر نفسه، ص164.

بالإضافة فإن ما يميزه أيضا عن بقية الشعراء أنه تارة شاعر يلقي مولدياته، وتارة أخرى متلق مستمع مع الجمهور، أما الشعراء الآخرين فإنهم شعراء دائما بمرتبة الملقين ربما يدخلون لوهلة في دائرة المستمعين حين يكون الشاعر السلطان يلقي، وعليه فإن هناك نوعين من الملقين؛ النوع الأول الشاعر (أبو حمو موسى الزياني)، والنوع الثاني الشعراء الآخرين.

وهذا ما يجعل احتدام التنافس أكثر بين الشعراء، وهم يتسابقون أيّهم أفضل في مدح النبيﷺ ومدح السلطان بحيث لا يمكنه أن يقبل الخسارة ويعتبر الغلبة لنفسه على جميع الشعراء هناك، «وهذا لا يشين العملية الشعرية بل هو في حقيقة الأمر واحد من المحفزات على الإبداع»[1]، الذي يُدخله في مواجهة مع النّاسب مسؤوليات فنية.

ويعقب الدكتور أحمد موساوي على هذا الموقف الذي يمر به الشاعر في الاحتفال أمام الجمهور مادحا النبيﷺ وأمام حضرة السلطان أنه موقف « محرج وخطر لا يقبل الانزلاق والتعثر؛ فالممدوح هو محمد المختلف عن كل ممدوحي الجاهلية والإسلام، والموروث بين يدي الشاعر هائل ومتنوع وعليه أن يجهد نفسه ويوجه قريحته الموجهة الحسنة وهو يقف أمام الجناب النبوي مادحا ومتوسلا وطالبا للشفاعة»[2]، وهذا ما ظهر مع الشاعر يحيى بن خلدون في محاولة منه لفرض الوجود على منافسيه الثغري.

وهذا ما كان يحدث سنويا، وذات الموقف يتكرر مع الشاعر وبالسمات الفنية ذاتها التي عرفت بها المولدية النبوية، ومع هذا فهو مطالب بأن يقدم كل سنة نصا جديدا يشترط فيه عدم التكرار والتفنن في إعمال الأدوات الفنية.

[1]– أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية ، ص90.

[2]– أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، ص91.

كل هاته المحفزات من شأنها أنها تعمل على صنع الجو الملائم لتوفر شروط عملية التوازن بين الشاعر والجمهور وخلق الألفة من خلال ردة الفعل التي تظهر علاماته في الاستجابة الجمالية لذى الجمهور المستمع.

3- خصوصية السّياق (المقام)

إنّ كل ما أقامه السلطان أبو حمو موسى الزياني لليلة المولد النبوي استعدادا للاحتفال بها وإحيائها، ليؤكد مدى وعيه وإدراكه لضرورة تهيئة الجو المناسب لإلقاء المولديات، ومساهمته في خلق البعد الخارجي للنص من الظروف والخلفيات المحيطة به والتي من شأنها الجمع بين قطبي العملية الإبداعية الملقي والمتلقي في إطار مكاني وزماني أثناء عملية التخاطب بينهما، وما يجمعهما من ملابسات البيئة التي نبع منها النص، وإدراك السلطان لمدى أهمية توفر هذا الفضاء الزماني والمكاني للعمل الأدبي والدوافع الاجتماعية والدينية من وراء تفعيله في الجوّ الاحتفالي، هو ما دفعه للاستعداد له والتحضير المحكم لمجرياته والسّهر على نجاحه واستمراره.

وهذا ما يبين طبيعة المقام التي تسبح في عبابه المولديات النبوية وتمنحه كلّ القرائن الحالية الخارجة عن التعبير اللغوي المتمثلة في «مرجعيات معرفية وخلفيات ثقافية وظروف اجتماعية وظروف الزمان والمكان»[1]، وهذه القرائن التي تخضع لخصوصية المتخاطبين وظروفهما النفسية والاجتماعية والدينية، وأوجدت السّياق الذي يعبّر عنه الموقف الكلامي الذي ينمو من خلال العملية اللغوية ومنظومة الخصائص التي ينماز بها هذا اللون الشعري في حدّ ذاته وملابسات البيئة التي تجمعهما.

[1]- د.المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى، دار الكتب الوطنية، بنغازي- ليبيا، (د،ط)، 2011، ص15.

ولذلك تجد السياق يشمل السّمات اللغوية والسمات غير اللغوية التي تجمع بين أطراف العملية التخاطبية؛ لأن المرسل يتأثر بالظروف الاجتماعية المحيطة بنظمه والاستعدادات والانفعالات التي تنتابه اتجاه ذلك، وقد شهدت المولديات الزيانية تلك الظروف الاجتماعية المضطربة ومحاولة السلطان في المحافظة على القيم الدينية والمبادئ من التنصير والأفكار التي كانت تهدد الكيان الإسلامي، واهتمام السلطان بمظاهر الاحتفال له ارتباط بالفضاء المكاني والزماني وما أحدثاه من سياق ديني، وسنتفقد كلّ ما من شأنه أن يقرب صورة المكان ومدة الزمان وطبيعة المحيط الذي تم فيه إلقاء المولديات من خلال خاصية الزمان والمكان.

أ. خاصية المكان:

لم يصرح بطبيعة المكان الذي كانت تلقى فيه المولديات الزيانية، ولكن هناك ما يدل عليه في الكتب التاريخية مع تلك المظاهر الاحتفالية، وشهادة يحيى بن خلدون حاضرة لتكشف عن مكان إقامة الاحتفال؛ حيث يقول «فأقام بمشور داره العلية مدعى...»[1]، ومشور هي دار الملك ومركز الحكم وبلاط الدولة؛ فهي مدعاة يحشر فيها كل النّاس سواسية ما يدل على كرم السلطان وتواضعه وفتح أبوابه بعيدا عن الرسميات في الاحتفال؛

وقد كانت أشياؤه فاخرة في خدمة النّاس، وهي تبرز تفاصيل المكان مظاهره من خلال الاهتمام بتجهيزه وتهيئته حسب مقتضيات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، «فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ومشامع كأنها

[1]– أبو زكرياء يحيى بن خلدون، بغية الروّاد، ج(2)، ص 100.

الأسطوانات القائمة على المراكز الصفر المموهة»[1]، وهي مسخرة لعامة النّاس لا لعلية القوم فقط.

أمّا عن أنواع الطعام فما وصفه زكريا بن خلدون ليعطي فكرة عن أنواع الأطعمة التي حضرت وأنفقت على الجميع؛ حيث يقول «وموائد كالهالات يفاض على الجميع أنواع من الأطعمة كأنها أزهار الربيع المنمنمة تشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر ويخالط حسن ريّاها الأرواح وتخامر»[2]، والموائد وهي تفاض على الجميع دلالة على كثرة الإنفاق على الجميع دون استثناء

فدلالة المكان واضحة وطبيعة تفاصيله وما يحويه ويتميز به معبّرا عن مظاهر الاحتفال بطريقة تدل على مدعاة الراحة للحضور وأنّ هناك القائمين على الاحتفال هم على قدم وساق لأجل إنجاحه واستمراره، ومظاهر الطعام هاته تجسد انسانية السلطان وحرصه على سن شعائر الدين الإسلامي، وهي لعامة النّاس السّوقة منهم والأشراف؛ «فكان يفاض على الجميع أنواع الأطعمة...»[3]، وهذا ما يؤكد الألفة والتعاطف والتعاون بين الناس؛ فالبسيط يرتاح لهذا الجو والغني يتواضع.

كما يخصّص للسلطان مكان ومن معه من أعيان خلافته، فيجلس «ممتطيئا سرير ملكه يسر الناظرين رواؤه يثلج الصدور عزّه وتحار في كمالات

---

[1]– المصدر نفسه، ص 101.

[2]– شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: مصطفى السقا– ابراهيم الأبياري– عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1358هـ – 1939م، (د،ت)، ج(1)، ص243.

[3]– شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبارعياض،ج(1)، ص243.

خلاله النّهى...»[1]، وحتى رجال دولته فإن، وضعية جلوسهم حسب مراتبهم واختصاصهم «تخالهم قطع الريّاض النضرات قد أغضى الجلال من أبصارهم وخفضت المهابة من أصواتهم، فلا تبصر إلا جمالا ولا تسمع إلا همسا»[2]، ما يدل على تنظيم المكان وإضفاء التنسيق المحكم عليه.

وهناك أعيان يقومون على تعطير المكان والأجواء الاحتفالية بالمباخر والعطور«يطوف عليهم ولدان أشعر وأقبية الخز الملوّن وبأيديهم مباخر ومرشات يغيم دخان عنبر تلك المفغم للأناف الجوّ فتمطر هذه الحفل وابلا من ماء الورد... »[3]، فالجو مفعم بأجواء الابتهال يغشاه وابل من بخور العنبر المعطر في المباخر ومرشات من ماء الورد ترش على الحاضرين

وما أضفى على المكان جمالا وهيبة بالإضافة لكل ما رأيناه اقتناء السلطان للمنجانة أو المنقانة[4] التي توضع بجانبه، وهي عبارة عن ساعة ينظر فيها لمعرفة الوقت؛ يصفها التنسي أنها «خزانة المنجانة قد زخرفت كأنها حلة يمانية لها أبواب مرتجة على ساعات اللّيل الزمانية»[5]، وذلك طيلة الليل إلى بزوغ الفجر، ويضيف أنه كلما مضت ساعة، وقع النقر حينها تبرز جارية بحوزتها رقعة بها أبيات شعرية في المولديات النبوية ومدح السلطان، وقد نظمها الشاعر أبو زكرياء يحيى بن خلدون بأمر من السلطان.

---

[1]– أبو زكرياء يحيى بن خلدون، بغية الروّاد، ج(2)، ص 101.

[2]– المصدر نفسه، ص101.

[3]– المصدر نفسه، ص 101.

[4]– أبو المصدر نفسه، ص 102، 103.

[5]– المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج(1)، ص244.

وقد انبهر زكريا ابن خلدون في صنع تراكيب هاته الآلة التي وصفها وصفا دقيقا مضيفا أن كل ذلك هو عبارة عن«حيل أحكمت يد الهندسة وضعها»[1]، وهذا ما من صور تدابير خلافته وتقاليدها في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وفي حضور المنجانة ما يدل على أن السلطان لم يقتصر على الإبداع الشعري، إنما ترك العنان للإبداع العلمي الهندسي لإثراء هذا الحفل.

ب. خاصية الزمان

تتمثل خاصية الزمان في صورتين؛ الصورة الأولى ومداها طويل يظهر في استمرارية الاحتفال مدة شهر، وهو شهر الربيع الأول أيام مولد المصطفى عموديا، أما الصورة الثانية فتتمثل في الزمن القصير المخصص لكلّ ليلة من الاحتفال إلى اكتمال الشهر من الناحية الأفقية، وهو زمن يدخل ضمن زمن الصورة الأولى طويل المدى، وهو الأقرب إلى زمن إلقاء المولديات في مدح الحبيب المصطفى، يتميز بالسيرورة والاستمرارية من بداية الليل إلى آخره.

وقد ذكرت المصادر التاريخية أثناء حديثها عن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ما يشير إلى الزمن الذي تُلقى فيه المولديات النبوية لإحياء ذكرى مولد النبيﷺ، فيحدث ذلك طيلة ساعات الليل إلى ساعة بزوغ أول وقت للفجر «وهكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح، ونداء المنادى حيّ على الفلاح»[2]، وهذا تصريح بحركية الزمن ودوره في صنع الفضاء الذي من خلاله تتحدد معالم سياق الاحتفال، ولا ننسى أمر المنجانة التي يتم من خلالها توزيع وقت الاحتفال ليلة المولد النبوي الشريف، وتنظيم أوقات إلقاء المولديات النبوية.

[1]– أبو زكرياء يحيى بن خلدون، بغية الروّاد، ج (2)، ص104.

[2]– شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج(1)، ص244.

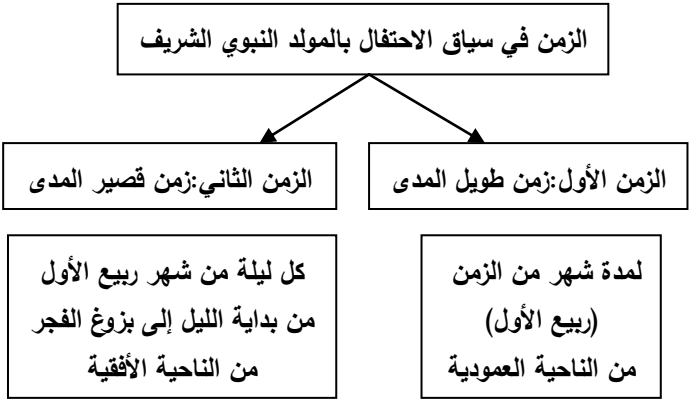

خاتمة:

هاته أهم مظاهر خصوصية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، التي عُرف بها السلطان أبو حمو موسى الزياني، ومن ذلك فإن الدّراسة قد توصلت إلى:

1. أنّ لأبي حمو موسى الزياني خصوصية ينفرد بها في احتفائه بمولد الرسولﷺ، وتعطي فكرة عن سياق إلقاء المولديات النبوية.
2. أنّ هاته الخصوصية صنعت عالما أدبيا إبداعيا شبيها بتلك المجالس والمحافل والأسواق الأدبية التي عرفت عند العرب.
3. حضور الجمهور أثناء الإلقاء في الاحتفال، يُجسد مظاهر جمالية التلقي وتداعياته.
4. فتحت خصوصية الاحتفال للرؤية النقدية الخاصة بنظرية التّلقي، مجالات إجراءاتها والبحث في سمات مبادئها ومميزاتها.

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، تونس، (د،ط)، 1986.
2. أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1982.
3. أحمد موساوي، المولديات في الأدب الجزائري القديم عهد تلمسان الزيانية، موفم للنشر والتوزيع، (د،ط)، 2008.
4. د.حبيب مونسي، نظريات القراءة في النقد المعاصر ،منشورات دار الأديب، (د،ط)، 2007.
5. أبو زكريا يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج(2).
6. د.عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، (ط)1، دار البعث للنش والتوزيع، 1406هـ- 1986م.
7. شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج(1)، تح: مصطفى السقا- ابراهيم الأبياري- عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1358ه – 1939م، (د،ت).
8. لسان الدين الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، ج(3)، تق، تح:د. السعدية فاعية، (د،ت)، (د،ط).
9. محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ ملوك بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف الدر والعقيان في بان شرف بني زيان، تح: محمود آغا أبو عياد، موفم للنشر والتوزيع2011.
10. د. محمد عنابي، المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العلمية للنشر– لونجمان، ط(2)، 2003.
11. د.المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى، دار الكتب الوطنية، بنغازي– ليبيا، (د،ط)، 2011.
12. ابن منظور، لسان العرب، المكتبة التوفيقية للطباعة، (د، ط)، (د،ت).